تجربتي الأدبية

بقلم توفيق يوسف عوّاد

غدا اصير كتابا يا لسعد غدي
محبة سمحة الاكتاف تطعمني
تجربتي الادبية ؟
قصة عمر .

مقلبا بين انفاس وابصار
في كل ثانية آلاف اعمار

بل قصة عمرين في واحد .

سيرتي وسيرة صاحبي الذي ولد معي ، وعاش وصلب ، ثم قام من بين الاموات .

في اساطير الجاهلية مخلوقان عجيبان لا يذكر احدهما الا بذكر الاخر ، هما شق وسطيح . كان شق بعين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة ، وكان سطيح بلا عظام يندرج كالثوب وينتفخ كالجراب .

على ان في الطبيعة احيانا ما هو اغرب من الخيال . من ذلك الظاهرة التي شغلت الناس في القرن التاسع عشر وذهبت في العالم مثلا : الاخوان السياميان . مسح مزدوج ، توأمان ولدا مرتبطين بخاصرتيهما ، وعاشا اربعا وستين سنة طافا خلالها بعواصم اوروبا وامريكا في سرك فرجة لمن يتفرج ، وتزوجا وانجبا اولادا ، واعتزلا اخيرا في مزرعة من مزارع قصب السكر في كاليفورنيا حيث وافاهما القدر المحتوم في افظع مأساة عرفها تاريخ الموت .

نسيت اسمي التوأمين المتلاصقين . هما على اي حال من الاسماء الاعجمية الاعجيبة التي لا تدور بسهولة على لساننا العربي. فاي باس ان نستعير لهما اسمي شق وسطيح ؟ واسطورتنا تعيننا على ذلك احسن العون من ناحية الازدواج بالذات ، فنحن لا نعرف شقا الا بسطيح ولا نعثر على اسم سطيح الا مقرونا باسم شق . فضلا عما ينبغي ان يفرينا من اوصافهما الفريدة . كيف لا ومن احدثكم عنه الليلة واحد في اثنين ، وان كان الاول سيستأثر دون صاحبه بمعظم الحديث . اجل ، لان شقا هو الذي يعنينا . وما عابته عين واحدة اذا كان يرى بها ما لا تراه العيون ، او رجل واحدة اذا حلج بها على القمم ، ولا يد واحدة اذا كانت تكمش اشعة الفجر .

* * *

في روايتي « الرغيف » ، في احد فصول المجاعة التي ضربت لبنان ابان الحرب العالمية الاولى ـ وكانت جثث الموتى لا تجد من اهلهم في الغالب من يتولى دفنها فعيفت البلديات موكلين بجمعها على محامل وطرحها في حفر عامة ـ كان طام يمشي في طريق الضيعة فاستوقفه وصول المحمل بالموكلين به الى قنطرة ، وامرأة بلا حراك في زاوية القنطرة في اسمال لها يسرح عليها القمل وعلى صدرها طفل عالق بثديها الميت . يتقدم احد الرجلين ويرفس المرأة بقدمه :

ـ شبعت موتا ! ـ والطفل ؟ ـ سيموت ان لم يكن اليوم فغدا .

ـ هاته ، قال الاخر . وقذفاه فوق امه على المحمل . وحانت منهما التفاتة الى طام فاطلق ساقيه للريح وهو يصيح :

ـ انا ما مت ! انا ما مت !

كان ذلك في خريف ١٩١٨ . كنت في السابعة من العمر. في نعومة اظفاري لست اشك الان ان شيئا قد نبت فيّ فجاة في تلك اللحظة الرهيبة . اظافر اخرى طفرت في روحي قاسية ، محددة هي الاظافر الزرق التي امسكت بها فيما بعد بالقلم وشرعت بالكتابة.

اما القلم فكيف انسى لقائي له وما كان بيننا من مكائد ؟ واحدة لا تزال تحفر في قلبي . كانت المدرسة التي فتحت عندنا بعدالحرب قد انتقلت من تحت سنديانة مار يوسف بحرصاف الى قبو سيدة المعونات في ساقية المسك . وذات صباح دخل الصبي ـ كان قد بلغ العاشرة ـ وما كاد يستقر على بنكه حتى يستوى بونا انطون بجلال كرشه على المنبر ويفتح دفترا كان يلقننا منه علوم الدنيا والاخرة وبتؤدة واناقة لا عهد لنا بهما يمد يده الى عب قبائه ، وكالساحر يطلع منه شيئا عجبا : قزما له طربوش بشرابة من ذهب ، وقامة في وسطها حزام من ذهب ، ثم اذا هو يتناول الطربوش من الراس فيضعه على العقب او بالعكس والصبي يفتح عينيه ولا يصدق ما تقعان عليه . فكيف وقد كرج القزم العفريت على الدفتر وكانه يمشي على لسانه .

كان ذلك اول عهد الصبي باقلام الحبر . ولما دعاه المعلم مع من تحلق من اترابه حول المنبر الى مشاهدة « الكونكلان » عن كثب ، وقام لهم بعملية تعبئة بالحبر ، ومناورات لجريه على الورق ـ يخط الحروف من زرقة البحر في توهجها تحت الشمس ، لا كالفزارة غمسا في دواة حبرها زفت وفي المواسم عصير كبوش التوت ـ ثم بكيفية تعليقه بجيب القباء ، على ان تبهر شرابته الناظرين وتفقأ حصرما في اعين الحاسدين ، لما رأى الصبي ذلك تولع قلبه . ومن المساء ارتمى في حضن ابيه : ـ متى يا ابي تنزل الى بيروت ؟ ضارعا اليه لا يريد صباحية العيد في راس السنة مشمعا بقبعة كما سبق وطلب منه ، ولا كرنيطة كما تشهى عليه مرارا ، بل قلم الحبر اياه ابا الذهب واخا البحر . وظل اياما يلاحقه ويذكره ويحلم في لياليه ، حتى كان

العيد الذي كان ماتما لذلك الحلم . كان ثمن « الكونكلان » ، كما هتف ابي بامي وهي تعاتبه على كسر خاطر الصبي ، ليرة عثمانية. وقد فضل ان يشتري بها للاولاد هدايا تنفعهم ، كان نصيب الصبي منها حذاء لماعا ـ صحيح ان سطيحا اضجعه تلك الليلة الى جانبه في الفراش ، ولكن شقا نامها اشقى ليلة في حياته ، وظل اللحاف يعلو ويهبط بجهشه حتى الفجر ...

من قبو سيدة المعونات في ساقية المسك بعد سنديانة مار يوسف بحرصاف . الى مدرسة الاباء اليسوعيين في بكفيا فالى كلية القديس يوسف في بيروت ، ظل الصبي فاليافع لا يحلم الا بالاقلام ، ولا يعاشر الا الكتب ، ولا يريد ان يكون الا كاتبا .

ومع ذلك لست ادري كيف انتصب سطيح ذات يوم في وسط البيت ونفخ من جوفه بوجه شق ، وما زال حتى اقنعه بفتح متجر في بلدته الجبلية ، ببابين على الطريق عريضين ، وآرمة فوقهما مترين طولا ، كتب عليها بالخط الفارسي الجميل ـ حصة شق الوحيدة في راس المال ـ . فلان الفلاني : ترابه وحديد وخشب لوازم البناء . ولكن ، بينما كان سطيح في تلك الفترة ، وقد استغرقت ستة اشهر فيما اذكر ، مشغولا باتربته وحدائده واخشابه كان شق ينصرف الى الكتابة في مجلة « العرائس » لصاحبها عبدالله حشيمة ـ وكان يصدرها في بكفيا ويطبعها في بيت شباب ـ فيرافقه مشيا على الاقدام نزولا وطلوعا بين الضيعتين ، ويوافيه في اخر الاسبوع فيقضي الليالي في مساعدته على طي المجلة وكتابة عناوين المشتركين . وربما نظم الشعر فارسله الى « البرق » لصاحبها بشارة الخوري الاخطل الصغير ثم لم يلبث ان تخطى حدود الضيعة والبلاد فجازف بمقال اول الى « السياسة الاسبوعية » في القاهرة لصاحبها محمد حسين هيكل فتنشره له في مكان بارز ، فيتبعه بثان وثالث .. حتى كان ما لم يكن منه يد . افلس المتجر . فدعا شق بسطيح ان يضب على دفاتر حساباته بينما كان هو يتسلق السلم الى الآرمة ويحطها الى الارض ، فحملها سطيح الى قبو البيت حيث لا تزال ، وحمل شق اسمه بعد ان نفض الغبار عنه مجرجرا سطيحا وراءه ونزل الى الساحة في بيروت.

* * *

في يوم البركة من ١٩٢٩ تناولت اول اجر على مقال اكتبه . كان ذلك في مجلة « البيان » لصاحبها بطرس البستاني في سلق « رسول العرى » المؤلفه فؤاد حبيش بعظة على قلة حيائه . ليرة . ليرة لبنانية سورية واحدة ، وكانت وقتذاك تحمل شرف القطرين الشقيقين. تاريخ في حياتي وفي حياة اصحاب الاقلام من جيلي . ولكن اذا كان شق لا ينسى سروره واعتزازه فانه لا ينسى شماتة سطيح به لما جاء اول الشهر وحان دفع ايجار الغرفة .

على ان صاحبي لم يعتم ان اخذ بثاره . فقد دعتني في الشهر التالي جمعية مار مارون الى القاء محاضرة ، فقبلت شرط ان اعين الموضوع ، الزجل او الشعر العامي وقبلت الجمعية على مضض استهانة على الارجح بهذا الموضوع . وقبيل الموعد المضروب لبس صاحبي احسن ثيابه وتأبط اوراقه وهم بالخروج من غرفته ، فحانت منه على العتبة التفاتة الى قدميه فجمد . كان صباطه للصيف ، ابيض والدنيا في عز الشتاء ، وليس له سواه . فعاد من الباب ونادى :

ـ سطيح . نخ واصبغ لي صباطي ! فصدع سطيح بامر سيده وصبغ له صباطه بما يوهم بالاسود .

وهكذا استطاع ان يدخل بين الناس مرفوع الراس ..

وان يجلس بعد محاضرته جلوس امير المؤمنين وقد وقف بين يديه امير الزجل شحرور الوادي يرتجل في مدحه قصيدة من اروع ازجاله، ثم يتبعه الحكيم امين الجميل بخطبة في الفصحى ، ثم يتقدم فؤاد افرام البستاني الى تلميذه القديم فياخذ منه المحاضرة وينشرها في « المشرق » .

ابتداء من ذلك الوقت تم الاتفاق بين الاثنين على سمت ارتضياه، فالتحقت بجريدة « النداء » لمنشئها كاظم الصلح حيث شرعت بخرطشة القصص ، كل يوم واحدة ، اتناول موضوعها من الشارع ، من المقهى، من البيت ، ومن كل ما هب ودب بين الارض والسماء ، واوقعها بالحرفين من اسمي ت.ع. مرة كانت قصتي صلاة ، ومرة ، على ما يظهر ، كفرا والحادا ـ في فتاة وظيفتها جمع الزبالة ، ومن جماعة ترى في الحب شيئا من ذلك مقذوفا بوجه السماء . فما كاد عدد الجريدة يظهر حتى زحفت الى دارها جموع هائجة على رأسها رجال دين اجلاء : ـ اين هو هذا التع .

ـ ياعادل ، يا تقي الدين ، يا عماد ، عليك الاعتماد هرّب فلانا من الدرب !

وهرب ت.ع. طرد ـ اكد كاظم لوفد المتظاهرين ـ ولكنه لم يخرج من باب الا ليدخل من باب آخر ويواصل الكتابة مذ ذاك بتوقيع « حماد » .

ومن « النداء » الى « البيرق » الى (الراصد)الى (البرق)ـ حيث نقبت للاخطل الصغير عن قصائده المبعثرة في عشرات الصحف ونقلتها بخط يدي على دفتر هو الذي اعتمده لدى نشر ديوانه ـ فالى « الايام » و « الشعب » و (القبس) في دمشق ثم اعود الى بيروت فاستقر في « النهار » ومن بعدها في « الجديد » مجلتي الاسبوعية.

قبل ان اترك ضفاف بردى انحني لاقطف زهرة ، فؤاد الشايب. اخ اخر لي لم تلده امي . يا ما كتبنا معا ونكتنا . ثم تنادينا الى تأسيس « ندوة المأمون » وتعاهدنا : قصة مني وقصة منه . ولكنه كان رحمه الله فيلسوف كسل فلم تصدر له الا مجموعة « تاريخ جرح »ـ كافية على اي حال لتدل عليه .

من حق ابناء هذا الجيل ان يتساءلوا : وما علاقة العمل الصحفي بالتجربة الادبية ؟ ـ الواقع ان الصحافة من حيث هي كانت في ذلك الوقت عبارة عن مشاريع ادبية . الكاتب ، وحتى الشاعر ، يصدر جريدة او مجلة ، للتعبير عن نفسه (بشارة الخوري الاخطل الصغير في « البرق » . واحد من كثيرين) او يشترك في التحرير عند زميل له . ولعل جبران تويني في « الاحرار » ثم في (النهار) هو اول من فضل الادب ـ على ولوعه به ـ عن الصحافة فوجهها توجيه الرائد لا في طريق مهمتها فحسب بل في طريق صيرورتها الى ما صارت اليه، اعني الصناعة الاعلامية التي اخذت حجم طموحه على يد نجله غسان .

في « النهار » ،وقد عملت فيها منذ العدد الاول قرابة عشر سنين ، قضيت انضر مواسم الشباب وازخرها . وبصفتي سكرتير التحرير كنت موكلا بعصبة بين محررين ومخبرين ومراسلين ، بضعة عشر من اخوان الطليعة اذكر منهم : لويس الحاج ـ نفطوية ـ ابوالعناوين الخبيثة ، كامل مروة ابو المروءات والشرارات في التحرير والتحبير، حنا غصن ابو المشاكل والمسالك الوعرة .. وكنت بتلك الصفة وراء كل مقال وخبر وكل عنوان وصورة ، وخصوصا وراء الكلمة الجميلة، همي الاكبر . فاكتب الكثير من الاخبار كتابة جديدة ، واعني بالجرائم فاقدمها في قصص مثيرة ، الى « نهاريات » لي اكتب فيها كل يوم نقدات ادبية بتوقيع حماد ـ اياه ـ وقد اخذها عني بعد ثلث قرن رشدي معلوف على طريقته ـ وهي النقدات التي ضمنت نخبة منها كتابي « غبار الايام » مضيفا اليها بعض ما نشرته في الحياة بامضاء « عبده ».

اما « الجديد » فكانت تحقيقا لحلم ـ حلم كل كاتب ـ اقلب فيها قلمي بين السياسة والادب على هواي مع فريق من الكتاب المختصين. وقد احتلت « الجديد » مدى نيف وخمس سنين مكانها في الصف

الاول من المجلات الاسبوعية في لبنان ، حتى كانت السنة ١٩٤٥ فجاء من يعرض عليّ طريشتها او برنطتها بشركة تتولاها ، يكون اعضاءها اصحاب « لوجور » وانا ، على ان ابقى رئيسا للتحرير . وعهد الى الرئيس شارل حلو ، رئيس تحرير « لوجور » لذلك العهد ، بكتابةعقد الشركة ، فصاغه بقلمه الانيقعلى عشر صفحات قفصا ذهبيا اذا كنت احفظ لاقامتي فيه عن صحبة المفكر الكبير ميشال شيحا وادبه احسن الذكريات ، فان الحرية لم تلبث ان حملتني على هجره بعد ستةاشهر والانطلاق في مغامرة على حسابي هي تحويل « الجديد » الى جريدة يومية .

واخيرا ـ « الصبي الاعرج » .

هذه كانت للرد على تحد جاءني من شريكة حياتي ـ اول قارئيّ واقسى ناقديّ ـ كانت عروسا ، وكانت تحب الكتب وتضع الكتاب في اعلى المراتب ـ ظني انها غيرت رايها بعد ان عاشرت واحدا منهم وعرفت ما هم ـ وكنت لا اجدها في اوقات الفراغ الا منكبة على رواية او قصة . فهتفت :

ـ تريدين ان اعملك قصة ؟

وبادرت مكتبي وفي مدى ساعتين او ثلاث خلقت الصبي ، كسرت له رجله ، حملته صندوقة الكاتو ، عشت مأساته حتى خرج منها ،ولم اتركه الا وقد استقامت رجله العرجاء باستقامة عزمه وطال خيالها النجوم .

لم تظهر « الصبي الاعرج » مع اخواتها في الكتاب الحامل هذا الاسم الا في ١٩٣٦ حلقة اولى من سلسلة منشورات « المكشوف ».

كانت « المكشوف » لذلك العهد خلية في مكتبها القديم « على السور » ، مغارة ، « انترسول » من بناية عالية ، كما تكون خلايا الدبابير . حتى ان الشيخ خليلتقيالدين الذي لم يحطها واطئة في حياته كان مضطرا لدى دخوله الباب ان يحني هامته ، وما يكاد حتى يصيح الشيخ الاخر فؤاد حبيش :

ـ الاركيلة يا ولد ؟

وعلى قرقرةاركيلة الشيخ خليل وتسابيح الشيخ فؤاد القادحةالسقف يتعاقب : الياس ابو شبكة بعصاه السوداء يهش بها على قوافيه ويطارد « افاعي فردوسه » . عمر فاخوري باخر جرائد سباق الخيل يدفع انفه في اذنابها وبريق عينيه الى الكتب حواليه . رئيف خوري يرفع اصبعه بالمعارضة ويهدر بالاحتجاج.صلاح لبكي يقرع قافاته القروية العتيقة على سكرة هي احدث قصائده . بطرس البستاني يضع وقاره ملء كرسي رفاصه الفيرزبادي ، ويل لمن اخطأ او لحن.يوسفغصوب بشفته السفلى مقلوبة لانه لم يعثر على من يلاعبه « المحبوسة » في مقهى النجار فعاد الى « قفصه المهجور » . وكثيرا ما يهبط علينا مارون عبود فتكتمل الجوقة على نشوق يقذفه في منخاريه ، على عطسات له ، لها عصف ودوي تطيح بجمر الاركيلة فتقوم القيامة ـ ويزغرد الادب وتحلولى الحياة .

في هذا الجو صدرت لي بعد « الصبي الاعرج » مجموعة « قميص الصوف » ، فرواية « الرغيف » ـ مجموعة (العذارى) ترجع الى وقت لاحق الى ١٩٤٤ ـ وكان بعضنا يقرأ في الغالب لبعض قبل النشر . « الرغيف » مثلا تلوت فصولها تباعا على فؤاد حبيش،وقرأها مخطوطة عمر فاخوري وميخائيل نعيمة .

ميخائيل نعيمة كان لا يطل علينا من شخروبه الا في النادر .وكذلك امين الريحاني من فريكته الا ابان الحملة التي شنها الريحاني ـ وعاوناه بها في « المكشوف » وفي « النهار » ـ على الذين اتهموا مي ادبية العرب بالجنون ، وقد اسفرت الحملة عن اجبارهم على اطلاق حريتها وعودتها الى الناس في مهرجان اقيم لها في وست هول الجامعة الاميركية اتقت فيه مي من روائعها ما ابكى وادهش وجنّن الكثيرين .

كان نعيمه والريحاني من الكهان . ويجمعهما في ذاكرتي رسالتان نقديتان وتعليق على الرسالتين . لما ظهر « الصبي الاعرج » كتب اليّ نعيمة : عزيزي توفيق،كأنك ما تعلمت الكتابة الا لتكتب القصة ..الخ. فامتعض عمر فاخوري لدى قراءته الرسالة في« المكشوف » : علام هذه العزيزي ؟ وما هي حتى اتبعها الريحاني برسالة : عزيزي توفيق ،في انفاسك شيء من تشيخوف الخ الخ .. فطفح الكيل لدى عمر .عزيزي من هنا وعزيزي من هناك . وهل يحتاج « الصبي الاعرج » ، ولو صبيا ولو اعرج الى من يمسك به من الميلين ويتشتشه ليدخل دنيا ادبنا العربي ؟ وشمر عمر عن ساعده وكتب من اجل هذه العزيزي ما يظل من اقذع ما كتبه ابو الظرفاء في الناس والاشياء .

اعمل دعاية لنفسي ؟

عفوكم ، سادتي، ولم لا ؟ لقد كانت لنا في « المكشوف »التي ارخت مرحلة ادبية في الثلاثينيات خطة رسمناها عن سابق تصور وتصميم ، تلك كانت الضجيج ما امكننا الضجيج . المديح فيموضعه مليح ، فان لم يكن فالطعن والتجريح . المهم ان نوقظ القارىء من سباته . وما كان اشد حاجته الى من يضرب على راسه هذا الضرب ، وما اخاله الا باحثا عن الضاربين حتى اليوم .

اكثر من هذا . انا قارىء نفسي قبل القارئين . ربما كتبت القصة او نظمت البيتين من الشعر في ساعة او ساعات .وربما قتلت الايام واحييت الليالي على فقرة او قافية ـ « الرغيف »كتبتها اربع مرات ، و« طواحين بيروت » ست مرات . فاذا ارتحت في النهاية الى صنيعي حملته في الناس مناديا عليه ، والا « شربتها وحدي » على دين ابي نواس ، ورحت اتلو على نفسي واطرب ـ الفنان صاحب رسالة ، صاحب بضاعة على الاقل ، اذا لم يكن اول المؤمنين برسالته او بضاعته فكيف يؤمن الاخرون ؟

ايها السادة ،

اذا استطاع قلم ان يصف لنا حياة الاخوين السياميين ـ وقد كانت لكل منهما طباعه وحاجاته ، وافراحه واحزانه ، واشواقه ومآربه ، وبكلمة شخصيته ـ اذا استطاع ان يصور لنا تلكالحياة التي كانت جهنما من صراع لا يعرف الراحة ـ وهما مع ذلك لا بد لهما من السلام لانهما لا ينسيان ولا يمكن ان ينسيا انهما اثنان في واحد او بالعكس ـ فاي قلم يستطيع ان يحكي لنا ماساة موتهما ؟

اجل ، لان ماساة المآسي كان مكتوبا لها ان تقع . فذات يوم استفاق احد الاخوين على اخيه ميتا ، فنظر الى الجثة العالقةبه، الى نصفه الذي يشده الى القبر ، وصرخ صرخة لم تهتز السماء، يقينا . على مثلها قط . وقد دامت فترة الهول هذه على ما يقول الشهود ساعتين . اقول « دامت » لان تينك الساعتين وسعتا الدهر كله .

كان ذلك فيكاليفورنيا في السنة ١٨٧٤ في مزرعة من مزارع قصب السكر ـ وفي بيروت في السنة ١٩٤٦ في بناية وقف الموارنة في ساحة البرلمان حيث كان مكتب « الجديد » .

لقد احدثت الحرب العالمية الثانية في لبنان ، كما احدثت في كثير من البلدان ، زلزالا قلب فيه الاوضاع راسا على عقب . واذا كانت « الجديد » قد ادت ـ مجلة وجريدة ـ قسطها من رسالة الصحافة الوطنية لذلك العهد على الصعيدين السياسيوالثقافي ، فان تجهيزاتها المادية لم تكن تؤهلها لمواجهة ذلك الانقلاب ،خصوصا بعد مغامرتها يومية .. وينظر صاحبي حواليه فيهوله ما صارت اليه الكثرة من الاقلام ـ العز لمساعير الاحذية . وما صارت اليه

الكتب ـ العز لبالات الخام تحتل القصور ، والاكواخ لترفعها الى مقام القصور . وما صارت اليه كل القيم التي يؤمن بها ـ العز لمن عرف ان يسوق مع السوق .

ـ لو ابقيت ، يا شق يا شقي ، على اتربتك وحدائدك واخشابك!

وهكذا تخليت عن « الجديد » ، كسرت قلمي ورميت اوراقي من الشباك ، وكتبي طعاما للنيران وما غلا منها فللفئران في القبو .

ساعتين اثنتين استغرقت مأساة مآسي الاخوين السياميين، وامتدت مأساتي الادبية ربع قرن . وفي ١٩٦٠ ، تبديدا لاي شك، وقطعا لاي امل ،حرصت على ان اؤكد ما سبق لي ان قلته في ١٩٥٢ في رسالة الى سهيل ادريس نشرتها « الاداب » في حينها جوابا على دعوته اياي الى استئناف الكتابة ، فتوايت هذه المرة اذاعة النعي بعنوانه على صفحات « الانوار » قلت بالحرف : ما زلتم تسألون عن المرحوم ؟ (كذا) لقد مات فلان الكاتب من زمان .

هل انا في حاجة الى القول انني كنت جادا في ذلك ، مخلصا بيني وبين نفسي الاخلاص كله ؟ والا فاذا كان صاحبي حيا يرزق فما باله لا يعود الى الساحة ويتفضل بما عنده ؟ لا . لا .وقد حان ترك الحداد ونسيان الاحزان .

حتى كان ذلك الصباح المشرق من صيف ١٩٦١ ، في بيتنا الجبلي ، على السطح المعلق بين الارض والسماء . واذا بشق ـ اياه ـ يطلع من البيجامه منتصبا بوجه الشمس ويصرخ : ـ انا ما مت ! انا ما مت !

ويمضي من فوره الى قلمه فلا يتركه نهارا ولا ليلا ، اسبوعا كاملا، حتى نفض يده من « السائح والترجمان » .

ومع ان « السائح والترجمان » قد نالت جائزة «اصدقاء الكتاب» للمسرحية ـ « امسرحية هي ؟ » ـ وشرف ترجمتها الى اللغة الفرنسية ، فستظل في نظري صراخا ، انفجارا ، بكل ما في الانفجار بعد طول كبت من عصف ولهب ودخان . ولم تتم العودة الواعية ، اذا جازلي ان احكم بنفسي على نفسي ، الا بعد بضع سنين في روايتي الاخيرة « طواحين بيروت » ، وقد كتبتها بين ١٩٦٨و١٩٦٩ وكتبت الى جانبها طائفة من القصص ما تزال مخطوطة ،ومن القصائد بين منظوم ومنثور . وبذلك استأنفت ما انقطعت عنه وعدت الى سمتي . وطاب على الحبر والورق ، من جديد ، طعم الخبز والملح.

لماذا اكتب ؟

كيف اكتب ؟

لمن ؟

من اين اتناول موضوعاتي ؟

ومن هم ابطال قصصي ورواياتي ؟

ما العلاقة بيني وبينهم ؟

وما العلاقة ، اخيرا ، بيني وبين الكلمة ؟

« سئل الكاتب الفرنسي « ليونو » قبيل وفاته : الا تكتب للخلود؟ فضحك الشيخ ملء سنيه وقال : الخلود . الخلود . وما يهمني الخلود وما يهمني الخلود بعد ان اصير ترابا في التراب ؟ انا اكتب لاني اجد لذة في الكتابة » .

« حاجة اقرب ما يكون الى الوصال . ورب كلمات لها في الفم طعم القبلات » (*) المعرفة . المعرفة بمعناها التوراتي وهل المعرفة في جوهرها الا ازالة الحواجز وهل غايتها الا الاتحاد .

مع كل صنيع فني ، مع كل قصة او رواية او قصيدة حب جديد. الكاتب عائش في حب دائم ، اي في انبهار دائم وعذاب مقيم . وهو معها في مناخ الحب لهاثا وارفا وتحرقا ، على تدلل وتمنع ومخاتلة ومداورة . وما دام وراءها فهي صالته المنشوده . فاذا وصل اليها ـ اذا وصلها ـ فاشواقه الى اخرى . امانته ليست لواحدة . امانته لحبه ، للفن . ودأبه مغامرة وشك مغامرة ، سعي حثيث لا يعرف الهوادة وراء تلك المعركة ـ اياها ـ في وسط هذا المجهول الاكبر ، الكون ، الذي يوميء اليه بالف يد ،ويغمزه بالف عين.

اكثر من ذلك . انا اكتب اذن انا موجود . وراء اللذة والالم اثبات للوجود وتحد له وتجاوز .

في القصة والرواية احيانا كثيرة ، وفي القصيدة دائما ، من العزلة انطلق . من شعوري بالعدم . والعزلة يجب ان تستحوذ علي ّ ان تبلغ غايتها في الاخذ بخناقي ـ وقد يتفق لي ذلك في المحافل الحافلة ، في المقاهي الصاخبة ، في السهرات الراقصة ، على اعترافي باني لم احسن الرقص عمري الا مع الكلمات ـ على العزلة ان تنتهي بي الى الازمة الحادة ، الى الحد الفاصل بين عالمي الواقع والخيال، ان تضعني في تلك المنطقة التي هي اشبه ما يكون بالقمر قبل الخليقة .

لمن اكتب ؟

« لنفسي » يقول سان جون برس محدثا عن الشعر .

مهلا ، يا سيدي مهلا . طبعا تكتب لنفسك . ولكنك في عزلتك ـ عزلة الفنان ـ لست وحدك . لست ابدا وحدك .

لا بد من الناس لا بد ، وهم في ثيابك . لا بد من الاخر . وما الكلمة بكلمة اذا لم تقع في اذن او تقع عليها عين . فانا اذن لصيق القارىء . الكاتب والقارىء جزئان من كل . في تفاعلهما تتم رسالة الكتابة . وكذلك رسالة كل فن .

انها رسالة عفوية . مطلقة . حرة من كل قيد . انا لا اؤمن بالقلم مسددا مصوبا الى هدف ، ولا حمارا محملا الى طاحون . والادب الملتزم بغير رسالته المجردة مكتوب له الزوال .

موضوعاتي ؟

تنفجر من داخلي . مما هو في ّ وانا فيه . بيتي ، قريتي ، مدينتي ، مجتمعي ، كوني . من تلقائها تنفجر . ثائرة ؟ ثائرة كلها على شيء . على اي شيء ما دامت ثائرة على نفسي ، على الانسان . بمعنى انها كلها تشد الى التغيير .

وسيلة الفن الى التغيير هي المهمة : الجمال . ومن هنا كان شرف الفنانين على الثوار وما يتوسلون به من وسائل . التأليف ـ كما يقول العرب ـ التأليف بين الاشتات والاضداد لتصير كلا . النظم ـ كما يقولون ـ نظم النفائس والاشعة في سلك . واذا كان من البديهيات ان يكون الكاتب اصلا ذا موهبة فالامر من قبل ومن بعد ـ كما يقول العرب اياهم ـ صناعة . بطل الوحي بعد انبياء . يبقى ،والحمد الله ، وحي القلم ، اي ولادة كلمة من كلمة . والكلمات تحت القلم نساء يلدن كل عجيبة .

ابطالي ؟

هم كذلك حوالي ومني وفي ّ . قد ينزع الفضوليون طرف ثوب لهم ويدلون باصبعهم قائلين : اشخاص حقيقيون ابدل المؤلف بعض ملامحهم تمويها وتضليلا . وقد يهتف اخرون : بل هم خرافيون لا يمكن هذا او ذاك ان يكون في الواقع . كلاهما على خطأ وكلاهما على حق. من اين آخذ ابطالي الا من الواقع ؟ من حجار الطريق الذي انا سالكه، من اعشابه من وجوه الناس الذين امر بهم او يمرون بي . واي قيمة لهم اذا لم يكونوا منه ؟ ولكنهم ليسوا اياهم الا بالاحجام التي اعطيهم اياها ، والابعاد التي اطلقهم فيها ـ الفن غير الواقع ، انه الواقع في الخيال ـ من لحم ودم يظلون ـ شرطهم الاول والاخير ـ « يتحركون فيحركون الهواء لا الافكار ، ويعيشون معك بعد القراءة ـ طول العمر » يقول انسي الحاج . بماذا ؟ لا بالاحداث التي يزجهم فيها الكاتب فقط بل بما يضعه خصوصا في قلوبهم وعلى افواههم من اشواق

(*) من رسالتي الى سهيل ادريس في « الاداب » ١٩٥٢ .

واسئلة . بمقدار حجم الاسئلة ، والسائل التي يطرحها الكاتب ،يكون حجمــــه .

وهم كلهم ، على اختلافهم ، واختلافي عنهم ، كلهم انا ولست واحدا منهم . انا الضـد وضده مجتمعان . انـا « الصبي الاعرج » مقهورا وعمه « ابراهيم » جلادا . وكذلك شاني مع سائر ابطالي فـي سائر كتبي ، قاتلا ومقتولا . بكـل شر الانسان الذي فيّ ارفع السكين واطعـن ، وبكـل عذابه اتخبط فيدم البريء . وكثيرا ما بكيت حقا .. بمـن تاثـرت ؟

بجدتي قبل اي احد . بحكايات جدتي حول الموقد في الشتاء ، وقد عشنـا طفولتنا على تلـك الحكايات لا على التلفزيون . ينبغـي ان القول تصحيحا . جدي لامي رحمهالله ، وكانت لديه من حكايات الابـن الشاطر والست بدور وخاتم سليمـان « تبيك عبدك بين يديك »طائفة عمرت عالم خيالـي مذ ذاك وترددت اصداء لهـا في بعض ما كتبتومنها قصـة « جدي وحكايته » . ثم كـان تاثري بابي وكـان سيدا منسادة الحديث اذا جلس يقص خبرا او يروي نادرة ، يوزع الاضواء والانـوار توزيع العارف ويوقع الكلمـات توقيع المسك بالانفاس . ثم ، ثـــم باستاذنا الاكبر ابي الفرج الاصفهاني في « اغانيه » الذي كنت التهـم قصصه وانا تلميذ التهام اترابي لقطع الكاتو ، والذي يظل ، بالرغـم ممـا يتهم به الادب العربي مـن جهـة للقصة ، عملاقـا من عمالقهـا تحت كل سماء وما ضر القصة ان لم تكـن على قلمه غايـة في ذاتها . فقد استطاع ، كمـا لـم تستطع الا القلة ، ان يعطيها ارفع اوصافها في السياق والحوار على حد سـواء .

ثم كان تاثري بالغـا باعضاء « الرابطة القلمية » وكانت فيعزها ـ وذلك على يـد راهب فاضل يتعبد للادب بعـد الله هو الاب روفائيـل نخله اليسوعي . وكان ينظم الشعر في « سانت تيريز دي لافان جيرو» ويتذوق جبران ، ونعيمه ، وابو ماضي ، ويدلني على مواضع الجمـال في آثارهم ومـا اتوا به من جديد على ادب كان قبلهم رهن التقليد . وتربطني باحدهم ، ميخائيل نعيمة ، صداقـة ترجع الى ١٩٣٢ اذ زرته فور عودته من نيويورك وكتبت عنه سلسلة فصول دعوته فيهـا ب « ناسك الشخروب » . واذا كان قد علق به مني لقب اطلقته عليه فمـن الحق ان اشهد اه ترك في منذ الصغـر ما يشبه النقش في الحجـر .

اما الكتاب الكبار في اللغات الاجنبية فلم انشط الى قراءتهم الا بعـد ان قطعت مراحل في طريقي . واعجبت ومـا ازال بالروس منهـم في القصة والروايـة على السواء .

ان القصة ـ والرواية ـ بمفهومها في الاداب العالمية ، قد انتهت هذه الايام الى ان تحضن كل نوع ، حتى ليمكـن القول انهـا صارت، على يـد الكثيريـن نوعـا جديدا لا يمت الى مفهومها القديم الا باسباب ضعيفـة جدا . نوع جديد هو اللانوع ، وشيء جديد هو اللاشيء وكل شيء . ما المانـع ؟ وهل المانع بالامكـان ؟ الادب ـ الفن ـ تجربـة لا تنقطع . وما تسفـر عنه هذه التجارب متروك الى التاريخ . ولكـن الحمدللـه ان في بيت ابي امكنة كثيرة ، ومـا يزال فيهـا امكنة كثيرة للذيـن لا يزالـون يكتبـون على ديـن دستويوفسكي وستاندال ولاورانس او يحركـون الناس والاشياء بسحـر الاصفهاني او يدفئون القلوب بما كانت تتدفأ به على حكايات الموقد في شتاء الطفولات .

✶ ✶ ✶

من القصة ـ والرواية ـ الى الشعر خطوة. بل ان في كل قصـة وكل روايـة شعرا . ليس من كاتب يستحق هذا الاسم مـا لم يكـن شاعرا . امن الضروري ان يقرض الشعر ؟ انـا مـن الذيـن مارسوه، على ايثاري المنظوم منه على الحر من وزن وقافية .

ياتي كـا ياتي . بالوزن والقافية ياتي فارضا وقاره . ليست هذه الطقوس من جوهـر الشعر ؟ هبهـا من غير جوهره ـ وتاريخ الشعـر لدى الامم كلها يثبت العكس ـ فهي على كل حال جديرة باسمه القدوس. ولكن ينبغي التسليم بان نطاق الشعر قـد ضاق جدا . بوزنوقافية كان او كان حرا . مع هذه المفارقة العجيبة : عدد الشعراء في صعد وعدد القراء في هبوط . والهوة بين الفريقين في اتساع الشاعـر الانكليزي سبندر لدى زيارته لبنان قبل بضعة عشر عامـا قال لي : الشعراء ؟ جمعيـة سريـة يتخاطبـون فيمـا بينهم من صوب الى صوب في العالم ، خلال العالم فوق العالم . ايـن نحـن من حلم زميلـــه الفرنسي موتريامون الذي كان يريد الشعر ـ من الجميع وللجميع ؟

ما اشبـه القصيدة ب « الشجرة الوحيدة » :

يتيمة قفر اي رحـم رمـت بهـا   سفاحا على الرمضاء من قاحل القفر
تردت قميص الليل حتى اذا نضت   ترامت تلاقـي ظلهـا واحـد العمر

ليس للقصيدة الا هذه الصحراء : صفحتها البيضاء في كتاب ، تلقي عليهـا ظلها ، ومن جهاتها الاربع الفراغ بلا حدود . من استطاع، من اهتدى فهنـا واحته وملجاه . والا فهي مرتميـة على ظلهـا الـى ما شـاء اللــه .

✶ ✶ ✶

وبعد ، ليس بالهين ان يكشف الكاتب ، واي فنان ، عن اسراره ومخبئات روحه للناس . ليس بالهين ان يعرضهـا عليهم ـ تمامـا كما عرض الاخوان السياميان شوهتهمـا على العالم ـ وان يضع اصابعهم عليهـا ،وان يسمعهم انات تجرح ليله وقهقهات يضرب بهـا حيطـان نهاره ، وان يقوم لهم ، معلقـا بيـن الارض والسماء، وهم علىمقاعدهم الوثيرة ، ببهلوانيات بناء عاله . ولكـن عزاءه عـن ذلك بـل جزاءه العظيم انه في تعريـة نفسه انمـا يعرّي نفوسهم ، وفي مناحاتـــه واغانيه انمـا ينتحب في مآتمهم ويغني في ـ اعراسهم ، والعالـم الذي يبنيه بالكلمات مفتوحة ابوابه للجميع .

كلمات،يا هملت ، كلمات . كلمات . « بيني وبين بعضها ـ يقول رمزي رعد في « طواحين بيروت » ـ عقود كتلك التي هي مسجلة عند كاتب العدل ، ولكـن اكثرهـا تروح وتجيء هكذا . مغتصبة ؟ متطفلة؟ المهم انـي لا اطيق العيش بدونها . ومثل جابر الذي يسالك ، ياست روز ، عـن نساء جديدة انـا اسعى دائمـا وراء كلمـات جديدة .اجلَ الكلمـات بنات ، وانا افضل الابكار منها حتى في كلامي عنالومسات.».

ثم يهتف : « تميمه احبت كلماتي . احبتني انا بالغلط لان كلماتي ليست انا . ليست انا الذي يدرج بين الناس على كل حال .

تقوّلني في الوصل ما لست قائلا   واسمع منهـا ما يحيّر ذاتـي
اصدق ما تملي عليّ فهل تـرى   تصدق ما املي انا كلماتي (✶)

توفيق يوسف عواد

(✶) محاضرة القاها الكاتب بدعوة من اتحاد الكتاب اللبنانيين مساء ١٤ شباط في قاعـة وزارة التربية ،بناية الشرتوني ببيروت .

مكتبة انطوان

(فرع شارع الامير بشير)

تقـدم للطـلاب

جميع الكتب المدرسية

العربيـة والفرنسيـة